جيوش كسرى أنوشروان

لم تهدأ حماسة الشعب ، ولم تسكن خفة طربه الجامح الذى تولاه منذ استوى عاهله كسرى أنو شروان على إيوانه . فقد ظل سبعة أيام تتدفق وفوده صوب القصر الكسروى هاتفة للشاه الجديد هتافاً ما زال يشتد ويتقد حتى خرج بها عن وعيها .

وجلس كسرى على عرشه فى تلك الليلة يحتفل بمرور أسبوع على أسعد حادث قديقع لانسان ، وقبع إلى يمينه عمه الأكبر ، وإلى يساره عمه الآخر . وامتدت أمامه حلقة دار بها رقص القيان الحسان ،وأحاط بالحلقة العازفون والزمارون يذكون الرقص بأنغامهم الشجية ، ومن وراء هؤلاء جلس أعيان البلاد وسراتها .

أخذ كسرى ينظر إلى ما حوله نظرة الحالم ، وازدحمت فى رأسه الخواطر التى ظلت تهيمن عليه طوال الأيام السبعة . كانت هذه الخواطر تدور حول معنى واحد ، هو أنه صار مالك الملك والمتحكم فى رقاب أولئك الناس الجالسين حوله ، والمزدحمين أمام قصره ، والمنتشرين فى أرجاء مملكته . ولما كان الجشع يزداد بازدياد الغنى ، فانه طفق يحلم بتوسيع رقعة ملكه ، ومضاعفة عدد رعاياه، ثم زخرف له الوهم أمانى حسبها قريبة المنال ، وهى أن يخضع العالم بأسره لسلطانه الشامل .

وفى أثناء الفترة التى توقف فيها العزف ليستأنف العازفون دوراً جديداً ، ملأ الغرفة هتاف السابلة بحياة سيدهم الجديد . وتقدم الوزير فى خشوع إلى سليكه ، وتوسل إليه أن ينزل فيتفضل على عبيده المتشوفين فى الطريق إلى اجتلاء طلعته الملكية باطلالة قصيرة من نافذة قاعة العرش ليثلج صدورهم ، ويمتع نواظرهم . ونزل الشاه الخطير وقبل الرجاء ، وتهادى بين صفّى الساجدين له إلى النافذة ، فقوبل بصيحات طرب تصم الآذان ، وجازى الصائحين على إخلاصهم بابتسامة تنم عن رضاه السامى . رأى من خلال أغصان الأشجار

ألوان المصابيح ذات الورق المكور المكسر ، واستطاع أن يتبين على ضوئها ذلك الحشد الزاخر الذى ضاق به شارع القصر على اتساعه ، واطمأنت نفسه إلى دلائل ولاء رعيته . ثم خاض بين الساجدين فى وقار عائداً إلى سدته العلية .

ولكنه لم يكد يطمئن فى أريكته بعد عودته حتى توقف هتاف السابلة فجأة ، وساد الشارع صمت رهيب أعقبه هرج ومرج . وأسرع الوزير إلى النافذة ليتبين ما حدث ، فانخلع قلبه إذ رأى قلول الجماهير تولى الأدبار متوارية فى الأزقة المظلمة ، وإذ سمع الكلمة الرهيبة تتهدج كالحشرجة فى أفواه الجازعين : « الثوار . . . الثوار » .

وهبّ الشاه واقفاً وقد أفقده الجزع وقاره ، وجالت عيناه ذات اليمين وذات اليسار . وتقدم خطوتين ثم نكص فى ارتياع على عقبيه . وجرى بعض الحضور من علية القوم إلى النافذة يستزيدون من أخبار ما يجرى خارج القصر . وتردد بعضهم الآخر لا يدرى أيظهر للشاه عطفه وعزمه على الدفاع عنه حتى الموت فيتعرض لسخط الثوار فى حالة فوزهم ، أم يعرض عنه فيتعرض لسخطه فى حالة إخفاقهم .

وخاب أمل الشاه فى شعبه بعد ان كان موقناً منذ برهة من ولائه له . وتقوض على حين فجأة صرح آماله الباسق ، ولم يعد يملأ رأسه فى تلك اللحظة إلا خاطر واحد ، هو الاهتداء إلى مخرج من حرج المأزق الذى وقع فيه .

ولم يجرؤ وزيره الذى نعم بآلاء أبيه على التخلى عنه وخذلانه فى محنته ، فأسرع إليه واقتاده إلى باب النفق السرى الذى أُعد من قديم لمثل هذه المناسبة المنكودة . وهرول وراءهما الأميران اللذان كانا يزينان العرش منذ برهة بجلوس أحدهما إلى يمينه والآخر إلى يساره . وقال الوزير لسادته وهويهم باغلاق الباب السرى وراءهم : « سينتهى بكم هذا النفق إلى بئر مهجورة ذات سلّم صاعد إلى وجه الأرض ، وستجدون هناك ثلاثة جياد لن يعجزها قطع المسافة القائمة دون الحدود . . . وأتمنى لكم التوفيق » . ورجع الوزير أدراجه لبعد الجياد الثلاثة و يرسلها إلى البئر المهجورة . أما السراة والأعيان الذين خذلوا مليكهم، فقد استعدوا فى قاعة العرش لاستقبال الثائر بهرام ، وللمناداة به شاها على بلاد الأكاسرة . وبينما كان هذا الأخير يستقبل حياة جديدة حافلة بالعز والمجد والرفاهية ، كان كسرى يستدبر مثل تلك الحياة ، ويودع كافة أمانى الدنيا

إلا أمنية واحدة . كان يتمنى أن تكتب له النجاة ، وأن تتاح له حياة لا يشترط لها شروطاً ، بل يرضى بها ولو كانت أتعس من حياة أتعس رعاياه . . .

تنكَّب الشاه وعماه اللذان صحباه الطريق السوى ، ولاذوا بالطرق الجبلية الوعرة يقطعونها تحت أستار الظلام ، ويأوون إلى الكهوف المعتمة طوال النهار ، فكان نهارهم أسود كليلهم سواء بسواء . ولم يكل الشاه ولم يتعب ، ولم تهدأ ثائرة خوفه . وكانت حوافر خيله التى تنهب الأرض تزعجه لأن الوهم أدخل فى روعه أن الثوار قد يسمعون وقعها ، فكان يكبح جماح جواده ويطلب إلى رفيقيه تخفيف سرعة العدو . ولكن سرعان ما كان الوهم يصور له من جديد أن أعداءه فى أعقابه وعلى وشك اللحاق به ، فيختلف رأيه ، ويلهب ظهر جواده بسوطه ، ويندفع بين الصخور الزلقة التى قد تكون أشد خطراً عليه من ملاحقة الثوار .

ومر على الطريد الشريد ورفيقيه أسبوع لشد ما اختلف عن سابقه . أسبوع جزع وشدة وقنوط ، على حين قد امتلأ الأسبوع السابق بألوان الدعة والرفعة والأمل البراق . وأدرك عندئذ أولئك الهائمون على وجوههم أنهم صاروا بمنجاة من طائلة الثوار ، فأخذوا يتخيرون النجعة المناسبة للالتجاء إليها . وأشار الأميران بالتوجه إلى الجنوب صوب الحجاز أو اليمن منوهين بما جبل عليه العرب من حسن الضيافة وإغاثة الملهوف ، ومتوجسين خيفة من الروم الذين تأصلت كراهية الفرس فى نفوسهم . ولكن الشاه الذى بدأ يطمئن على حياته لم يشاركهم فى رأيهم ؛ لأن سراب الأمل عاد إلى مداعبته ، وأوحى إليه أن إمبراطور الروم قادر من دون العرب على إسداء يد المعونة إليه ، وإمداده بجيش يمكنه من استرداد ملكه . وغرَّب الركبان الجياع الواهنون فى اتجاه بلاد الروم لأن أمر الشاه مكتوب له النفاذ ولو كان صاحب الأمر مخلوعاً منبوذاً .

ولم يلبثوا أن اعترضت سبيلهم ربوة لم يكادوا يتبوءون قمتها حتى أشرفوا على مدينة رومية تقع على الحد الفاصل بين بلادهم وبلاد الروم . وخفقت قلوبهم وتنزّت بين جوانحهم لاقتراب الساعة التى سيتقرر فيها مصيرهم . وشطح بهم التخمين ورجّحهم بين اليأس والأمل . والتمس كسرى الخلاص من عذاب خواطره المضنية باعداد الحديث الذى سوف يلقى به بين يدى العاهل الذى يقصده ، وإحكام الحجج التى سيدلى بها إليه ليقنعه بضرورة معاونته على إخضاع

مغتصبي عرشه . ولم يشعر ثلاثتهم ، وهم فى شغلهم الفكرى الشاغل ، بطول المسافة التى قطعوها إلى تلك المدينة ، ولم يفيقوا من سبحات فكرهم إلا وهم وقوف على باب السور الكبير .

رحب بهم حاكم المدينة وأكرم مثواهم . وقد أدهشهم أن يعلموا منه أن نبأ الثورة وما أعقبها من انتصار بهرام وهروبهم وصل إلى علمه منذ يومين وأنه أرسل إلى إمبراطوره رسولا يستطلع رأيه فى شأنهم لأنه توقع مرورهم بمدينته . وضاقت الدنيا فى وجه كسرى وثقلت عليه خطوات الزمن وهو ينتظر قرار عدوه فى شأن مصيره .

وحان الفرج بعد شدة الحرج ، ووصل وفد من قبل الامبراطور موريق إلى هيرابوليس ، وهى المدينة التى نزلها كسرى وقضى بها حقبة عسيرة لم يعرف خلالها أهو أسير مقيد أم ضيف مكرم . وسمع هذا اللاجئ الحائر ، وهو لا يكاد يصدق أذنيه ، من رسل قيصر الروم ، أن سيدهم سعيد بالتجاء عاهل الفرس إلى بلاده ، وأنه يود أن ينعم بلقائه فى القسطنطينية ليظهر بنفسه مبلغ اغتباطه بهذه الزيارة الميمونة .

وانتشر بين الناس نبأ قدوم الشاه إلى بلادهم وترحيب قيصرهم به ، فخرجوا فى كل مدينة مر بها وهو فى طريقه إلى القسطنطينية لاستقباله ، وأظهروا له من دلائل الابتهاج بمقدمه ما أثار عجبه . ولو اطلع على ما يدور بأخلادهم لهاله أن يعلم أنهم أملوا من وراء وقوعه فى أيديهم أن يتخذوه وسيلة لتغلغل جيشهم إلى قاعدة ملك أعدائهم . وبعد رحلة طويلة هوّنت عليه مظاهر إجلاله وإكباره مشقتها ، وصل إلى شاطئ البسفور حيث استطاع أن يلمح فى شاطئه المقابل معالم القسطنطينية التى كان يطمع فى القدوم إليها غازياً ، وما ابتعدت السفينة التى استقلها لاجتياز المضيق عن الشاطئ قليلا حتى أمكنه أن يتبين أعلام الزينة التى نصبت فى عاصمة بلاد أعدائه احتفاء بمقدمه إليها .

رست السفينة إزاء حديقة القصر الامبراطورى ، وكان سيد القصر واقفاً بين وزرائه وكبار رجال حاشيته لاستقبال زائره . وما التقيا حتى طوق كل منهما الآخر فى عناق حار ، وبدا الخصمان اللدودان كأنهما صديقان حميمان . وافتر ثغر كل منهما عن أعذب البسمات ، فى حين لم يفكر كلاهما إلا فى أمثل طريقة يستطيع أن يستغل بها صاحبه .

ولم يعن كسرى بما حوى قصر بيزنطة الفاخر من روائع التحف التى ترامى إليه صيتها وهو لم يزل فى بلاده النائية ؛ فقد شغل عنها فى هذه الآونة العصيبة بتهالك نفسه على معرفة النية التى يبيتها له مضيفه . وبعد جولة فى أفناء ذلك القصر الفاخر جلس الضيف والمضيف فى شرفة شرقية تطل على القرن الذهبى حيث تبرجت الطبيعة عن أروع فتنها . وما وقع لمخلوق أن رأى تلك الفتن إلا بهر بها وأُخذ أخذاً . ولكن نصيبها من اهتمام كسرى لم يكن أوفى حظًّا من نصيب التحف والرياش البيزنطية التى مر بها منذ هنيهة وألقى عليها نظرات شاردة .

أخذ يتحدث إلى جليسه فى أمر استعادة ملكه . وقال له فيما قال إن الكارثة التى أصابته لا تتعلق به وحده ، لأن كل ذى سلطان معرض لمثلها ، فهى تتعلق بالملوك جميعاً . ومصلحتهم تقتضى التكاتف والمعاضدة فى حالة نزول أية سلمة بأحدهم ، حتى يطمئن كل منهم إلى حصوله على العون نفسه فيما إذا احتاج إليه ، وحتى لا يحدِّث أى طامع فى الملك نفسه بالثورة على مليكه . وتكلف قيصر الروم العطف على المستعين به ، وتظاهر بأنه اقتنع كل الاقتناع بالآراء السديدة التى أدلى بها ، وعاهده على أن يجيش له جيشاً جراراً يضعه تحت تصرفه . ووقع كسرى فى الغفلة التى يقع جل الناس فيها ؛ لأنه لم يفطن إلى أن موريق قد يكون مثله فى طمعه وفى تحرقه إلى بسط سلطانه على بلاد غيره من زملائه الملوك .

اطمأنت نفسه ، وشاعت الغبطة فى كيانه ، وسرّح طرفه فى ألوان الطبيعة المتلألئة أمامه ، فرأى جمالا لا يطيف مثله بخيال الشعراء ، وتعاون الأمل الجديد المنبثق فى نفسه مع حسن المناظر المتجلية له على تهيئة جو حوله من السعادة لم يعرف مثله حتى أيام تتويجه السعيدة .

وجاء الليل بخواطره السود ، وأقض مضجع كسرى التفكير فى أولئك الثوار الذين أزعجوه وشردوه ، وجعل يتخير لتعذيبهم أبشع الوسائل ، ويفتر ثغره عن بسمات رهيبة وهو يفكر فيما يفكر فيه . ولم تحدث له فكرة استرداد سلطانه بعض النعيم الذى أحدثه شعوره بقرب إشباع شهوة انتقامه .

ولم يضيع موريق هنيهة من الوقت عبثاً . وأشرف بنفسه على الاستعداد لغزو البلاد التى طالما حلم بضمها إلى أملاكه . ولكن كسرى القلق المتبرم

كان يستبطئ ذلك الاستعداد متهماً الروم بعدم المبالاة بأمر تلك الحملة التى تورطوا فى تجريدها لمجرد مرضاته . وبعد انتظار مضن مشحون بلواعج الضجر والسأم تم له ما أراد . وسار ملك الفرس على رأس جيش أعدائه ليفتك بجيشه ويرغم أنف رعيته .

توغلت كتائب الروم فى أراضى الجارة المخوفة ، ولولا قيام الشاه على رأس الغزاة لقهرهم الجزع قبل أن يقهرهم أعداؤهم . ومر يوم بعد يوم دون أن يظهر للخصم المرتقب أثر . وعاود الشاه المتعطش لسفك الدماء ضيقه وتململه ، وزاده هذا الضيق والتململ حرصاً على التشفى والأخذ بالثأر . وفى عشية أحد الأيام جاء المستطلعون الروم بنبأ وضع حدّاً لذلك الانتظار الممل . قالوا : إن جنود الفرس يرابطون على شاطئ نهر الزاب القريب .

طاف نرسيس قائد الروم فى صحبة الشاه بفصائل جيشه متفقداً مبلغ أهبتها للالتحام بالعدو . ولم يغب عن الجند أن سيد الفرس كان أكثر لهفة على قهر بلاده من قائدهم . وخيم الليل وسجا ، واعتل نسيمه ، وانتثرت نجومه ، وأتاحت الطبيعة للقوم نعمة الاستمتاع بسحرها . ولكنهم انصرفوا عن هذا النعيم إلى التفكير فى نار الجحيم التى سوف يصلونها فى الصباح التالى . وانقضت ليلة رهيبة اختلجت فيها القلوب ، واضطربت الأعصاب ، وبات الجميع يذكرون الموت الذى يترصدهم إلا كسرى الذى لم يكن يفكر إلا فى استرداد عرشه ، وفى الانتقام من أعدائه .

وما كاد فجر اليوم التالى يرسل أشعته الأولى حتى مشى كل من الجيشين إلى الآخر فى حذر وتهيب . ولم تلبث الواقعة أن وقعت ، والتحم الفريقان فى قتال بذل أحدهما فيه دماءه ليحتفظ بهرام بعرش الأكاسرة ، وبذلها الآخر ليشبع سوريق مطامعه ويوسع رقعة ملكه . ولولا وصول الشاه سالماً إلى بلاد الروم واستعانته بعاهلها لما أُريقت تلك الدماء ، ولا بذلت تلك الأرواح .

ولم يشترك كسرى أنو شروان فى المعمعة ، ولم يُزْجِ الصفوف تحت الدِّرَفْس كما ظهر فى نقوش أنطاكية ، ولكنه وقف مع عميد على ربوة عالية يرقب المعركة التى كانت تدور على أخر مرمى بصره ، ويغتلى غيظاً لقصور نظره عن تمييز ما يعتورها من كرّ وفرّ . وكان يزعجه بين حين وحين صهيل الجياد الثلاثة التى أُعدت لهربه مرة أخرى إذا دعت إلى ذلك حاجة .

وجرى لبهرام أثناء المعركة ما جرى لكسرى فى قاعة عرشه أثناء الثورة، إذ خشى أنصاره انتقام الشاه فى حالة اندحارهم. وفكر كل منهم فى أن يسبق غيره إلى الاستسلام والاستغفار عما سلف. ولم يلبثوا أن تباروا فى هذا المضمار، وطفقت جماعة من الزعماء تلقى سلاحها بعد جماعة، وسعوا إلى الأسر صاغرين. ثم توسلوا إلى نرسيس قائد الروم أن يقودهم إلى الشاه ليقدموا إليه فروض الطاعة. وعندما هلّ عليهم المليك الذى ثاروا عليه سجدوا له والتمسوا المغفرة. وتفقد كسرى بينهم الثائر بهرام، فلما لم يجده وعلم أنه ولى الأدبار، وعد أن يغفر لمن يأتيه برأسه.

وجرى الذين عاونوا بهرام على الثورة فى كل اتجاه، باحثين عن زعيمهم المنكود. ومنّى كل منهم نفسه بأن يتمكن من قتله ليعود إلى الشاه المنتصر برأسه ويفوز برضاه. ولم يلبث بعض المحظوظين منهم أن فازوا بما أملوه، وعادوا بالرأس المقطوع تقطر منه الدماء، وقدموه وهم يصيحون صيحات الطرب إلى العاهل الغاضب. وما افتر لهم ثغره عن ابتسامة الرضا حتى سجدوا له وتمسحوا فى التراب.

وتبدلت حظوظ سراة فارس، واختلفت أقدارهم؛ فحظى بالعطف السامى كل من أصابته نقمة فى العهد الغابر، كما أصاب التنكيل كل من نعم برضا بهرام. وأُخرج وزير كسرى القديم من غيابة السجن واقتيد إلى قصر سيده وقد أعشى عينيه ضوء الصباح. وجرت الأمور من جديد فى مجراها القديم. ولم يتغير إلا قلب كسرى الذى زادته ثورة الثوار ثم العصف بقادتها عنتاً وخبث طوية، وإلا مجلسه فى قاعة العرش إذ احتل نرسيس قائد الروم المقعد القائم إلى يمين كرسى الملك.

ولم يهتم أحد بهذا التغير الأخير الطفيف إلا الوزير المسن؛ فقد كره القائد الرومى من صميم قلبه، وازداد له على توالى الزمن كرهاً؛ لأن ذلك الأجنبى لم يجلس إلى جانب كسرى صورة كما كان يجلس عم هذا الأخير من قبل، بل كان يتدخل فى كل حديث يجرى بين العاهل وبين كبار رجال حاشيته أو كبار حكام الدولة. وكان يبدى رأيه فى كل شأن من شؤون الحكم، ويصر على أن يحمل رأيه دائماً على أنه أمر واجب الطاعة.

لم يطق الوزير الصبر على هذه الحال. وفاتح كسرى فى أمر هذا الدخيل

المتهجم على سيادة الدولة ، وعلى حق صاحب الأمر والنهى . ولكن صاحب الأمر والنهى كان مشغول البال عن مثل هذه الترهات بتوزيع رضاه وسخطه بين عباده وفق أهوائه المتضاربة . وطال الزمن وقائد الروم ما يزال سادكاً بمقعده إلى يمين الشاه ، وجيش الروم ما يزال مرابطاً بمعسكره إلى جانب قاعدة الملك .

وجرؤ الوزير على سيده ونبهه مرة أخرى إلى ما فى بقاء تلك الحال على ما هى عليه من مساس بعزة الدولة وكرامة العرش ، وأشار عليه بأن يكتب إلى إمبراطور الروم مطالباً بأن يستدعى هذا الأخير قائده نرسيس ، ويسحب جيوشه التى فرغت من المهمة التى كلفت بها . وما طرقت أذن كسرى عبارة سحب الجيش الرومى حتى ثارت ثائرته ، واشتد حنقه على وزيره ، ورماه بالحمق وأفن الرأى .

وعول الشيخ المحنك على أن يحقق غايته بحسن السياسة ، فصبر على مضض متحيناً الفرص . واستطاع بما جبل عليه من دهاء ، وبما اكتسب طوال إقامته فى قصر سادته من طول باع فى الحيلة والمكر والخداع أن يوغر على مر الزمن صدر كسرى على القائد الذى أعاد إليه ملكه ، وأن يحمله على الكتابة إلى موريق فى أمر مسلكه النابى . وأملى الشاه على وزيره شكواه إلى الامبراطور ، واقتصر على المطالبة باراحته من ذلك المتن عليه . فلما أعاد الوزير الكرة وأشار عليه بأن يطالب كذلك بجلاء جيش الاحتلال عن بلاده ، غضب كسرى من جديد ، ورماه بخيانة عهده وعدم مبالاته بسلامته وسلامة عرشه من طمع الطامعين فيه ، وتحمس فختم رسالته بأن ذكر لموريق أنه اتخذ الجيش الرومى الذى وطد له ملكه حرساً له .

وحقق له صديقه الطامع فيه رغبته . وأرسل القائد جرمانوس ليحل محل نرسيس ، وقال فى رسالة أنفذها إليه إن المحافظة على حياته الغالية التى هى أثمن شئ فى الوجود لا تقوّم بعوض ، وهو لذلك لا يقتضى منه ثمنها كاملا ، ولكنه يكتفى باقتطاع البلاد الفارسية الواقعة بين التخوم الشرقية لدولته وبين نهر الرس ، وبضمها إلى أملاكه . ولم يجد كسرى فى طلب نصيره أى ضير . فما هى قيمة البلاد والعباد إذا قيست بسلامة رأسه الغالية ! وقبل أن يجيب الطلب المتواضع كان جيش موريق قد غمر تلك القاطعات السحيقة ونفذ رغبة سيده دون انتظار موافقة من صاحب الشأن عليها .

وصبر سراة الفرس مرغمين على تلك المعرة التى لطخت بلادهم ، وسكتوا على رضا صاحب العرش بالضيم وصبره عليه . ولم يشذ إلا الوزير الذى اعتاد أن يرى سادته أقوياء الشكيمة شمّ الأنوف . وصارح مليكه بأنه يفضل غيابة السجن على وضح النهار الذى تجرى فيه هذه الخطوب . وتناسى كسرى أياديه عليه ، وأخذه بقوله ، وأعاده إلى الغرفة المظلمة التى اختارها له بهرام فيما مضى .

ولم يكن جرمانوس أقل جوراً على سلطة الشاه من سلفه نرسيس ، ولكنه كان أكثر منه توخياً للكياسة واللباقة فى تحقيق مراميه . وجرت الأمور فى هوادة على منوال واحد ، ولم يعكر صفو كسرى معكر وهو يغترف وسعه من متع حياته المترفة وملذاتها ، حتى ترامت إليه أنباء مثيرة عن أحداث جسام خطيرة العواقب حدثت فى بلاد الروم ، إذ وقع موريق فى محنة أشبه بالمحنة التى وقع هو فيها من قبل ؛ فقد شق عليه فوكاس عصا الطاعة ، وألب عليه شعبه ، واندفع على رأس جحفل جرّار من الثوار صوب بيزنطة ليثل عرشه .

دار الفلك دورته ، وأخذ نجم موريق يأفل على حين أخذ نجم كسرى يتألق من جديد . ونفض هذا الأخير عن نفسه الذلة والمسكنة ، وعصفت فى نفسه عواصف العزة المكبوتة إذ شعر بأنه يستطيع اليوم أن يرد مثل اليد التى أسديت إليه ، وأن ينقذ منقذه ويحمى من حماه . ونشط إلى إعداد جيشه ، وجهز منه العدد العديد والعدة الوفيرة . واعتدل فى هذه المرة على ظهر جواده ، وسار على رأس جيشه الجرار ميمماً شطر جارته الثائرة . وكان كل جندى من جنوده يتحرق لهفة على الانتقام من الروم وغسل الإهانة التى لحقت بلاده منهم بالدم المراق . وعب عباب ذلك الجيش وسال على بطاح أرمينية فغمرها . وشد ما اختلفت حاله اليوم عن حاله بالأمس حين انحسر عن بلاده أمام جيش نرسيس كالم وقت جزره ، أما اليوم فهو يطم ويربى على البطاح كالم إبان مده . ودلت الأنباء المتواترة على خطورة الحالة فى بيزنطة حيث وصل الثائر فوكاس إليها ، وضيق الحصار على الإمبراطور وأسرته وهم قابعون فى قصرهم . وبينما كان كسرى يستعد لاقتحام آسيا الصغرى إذ وصل إلى سمعه النبأ الفاجع ، وهو مقتل موريق وأولاده فى قصرهم الإمبراطورى .

ونبتت فى ذهن الشاه من جديد تلك الفكرة التى خلبت فيما مضى لبه ، وهى ضم الإمبراطورية الرومانية الشرقية إلى أملاكه . ولكنها لم تكن فى هذه المرة

وهماً يتوهمه حين يسطح به الخيال ، بل كان تحقيقها فى متناول يده ، لا سيما بعد أن اغتيل موريق ، وشاعت الفوضى فى أرجاء تلك البلاد ، وتخاذل حماتها أمام قواته الزاحفة كما تخاذل الفرس من قبل أمام قوات ترسيس . وقسم جيشه قسمين ، وجّه أحدهما إلى بيزنطة والثانى إلى الشام .

وبينما هو ينتظر تسليم مدينة أنطاكية بعد أن طال حصاره لها إذ جاءه جرسانوس يبشره بأن هرقل والى ليبيا الذى زحف بجيش عرمرم إلى القسطنطينية بأمل إنقاذ الامبراطور ، اشتبك بجيش الثوار ودحرهم ، وتمكن من دخول بيزنطة والانتقام لمليكه بقتل فوكاس وأشياعه . وظن جرسانوس أن كسرى سيغتبط بهذا النبأ الذى سيكفيه مؤونة مواصلة القتال ، ويتيح له العودة إلى بلاده لاستئناف حياة المرح واللهو الماضية . ولكن الشاه الذى لم يشبع من إراقة الدماء صارحه بعزمه على مواصلة القتال متذرعاً بأنه يريد أن يتحقق بنفسه من أنه لم ينج أحد من المعتدين على صديقه الراحل من القصاص .

تولى خوريام قيادة شطر الجيش الفارسى المتجه شرقاً . وما آنس من خصمه الضعف حتى انطلق بجنده فى أعقابه من غير هوادة ، يدك حصونه ، ويتلف عدته ، ويشتت شمله ، ويلاحق فلوله . ولم يزل به حتى أوهن عزمه ، وقلقل البقية الباقية من نخوته وشجاعته ، ولم يجد بعد ذلك مشقة فى القضاء عليه قضاء مبرماً . وسقطت دمشق وقيصرية فى يده كما تسقط الثمار اليانعة ، وواصل زحفه حتى وصل إلى بيت المقدس فضرب حوله الحصار .

ولم يجهل الفرس مناعة أسوار تلك المدينة ، ووطّنوا النفس على احتمال طول الحصار . ولكن الحظ الذى واتاهم منذ ابتداء حملتهم لازمهم كعادته حتى النهاية . فثار جماعة من المضطهدين فى المدينة على حكومتها . وتناحر أصحاب الملل والعقائد المختلفة . وهب اليهود فى وجه المسيحيين مطالبين بدم شهدائهم الذين نكل بهم هؤلاء . وشاعت الفوضى فى البلد المحاصر ، واختل فيه الأمن ، وعمه النهب والسلب ، فنفدت المؤونة قبل الأوان . وتمكن الساخطون الثائرون من فتح أبواب الأسوار المنيعة ، فتدفق منها جحفل الفرس كالسيل الجارف .

ولم يوطد الغزاة النظام بل زادوه اختلالا . وأخلى لهم اللصوص الميدان ، فخلوا محلهم ، وأتوا على البقية الباقية من مال أهل المدينة ومتاعهم . ثم أعملوا

السيف والنار، فقتلوا من صادفهم من السابلة، وأحرقوا الدور. وزادهم توقد النار وتدفق الدم جنوناً، فلم يتورعوا حتى عن قتل النساء والأطفال، وعن إحراق الكنائس والمعابد. وأعدت بذلك مدينة بيت المقدس أفخم إعداد لاستقبال الشاهنشاه المنتصر.

لزم فتى من طلبة العلم نافذة غرفته الحقيرة القائمة على دار متوارية فى أحد الأزقة، وأخذ يرقب فى هلع واضطراب ما يحدث فى الطرق المكشوفة له. وكانت عيناه تشخصان وتتسع حدقتاهما كلما تتبع حادثاً من الحوادث الرهيبة التى لم تكف عن الوقوع على مرأى منه، ثم تدوران فى أثر مشهد آخر لا يقل رهبة عن سابقه. رأى المذبحة منذ بدء نشوبها حين جرت الجماهير فى الطرقات وهى تصيح صيحات وحشية: «دخل العدو المدينة... العدو فى أثرنا». ثم سمع الصراخ والعويل والأنين يتصاعد ويمتزج فيؤلف نغماً مؤلماً أشبه بموسيقى الجنازة. ولم تلبث شوارع المدينة أن أقفرت إلا من جثث القتلى والجرحى الملقاة فى عرضها. وما هى إلا هنيهات أخرى حتى ظهر الفرس الذين كانوا يطاردون ضحاياهم، ويرشقونهم بالنبال. وكثر جريهم يمنة ويسرة، واقتحامهم الحوانيت، وملء أيديهم مما وقع تحتها من خيرات. وحاول بعضهم دخول المنازل فأخذ يدق أبوابها دقاً عنيفاً ثم يبذل جهده فى سبيل خلعها. ولكن القوم المحتمين فى عقر دورهم بذلوا هم كذلك قصارى جهدهم ليدفعوا عنهم غائلة أولئك المعتدين. فوضعوا كافة ما يمتلكون من أثاث وراء تلك الأبواب، وقابلوا دفعها من الخارج بدفع مثله من الداخل. واستماتوا فى الدفاع عن مساكنهم لأنهم لم يجهلوا المصير الذى كان ينتظرهم فى حالة اخذالهم.

وما نشر السماء إهابه الأسود على المدينة حتى وقعت الطامة الكبرى. فقد طاف حملة المشاعل من جنود العدو بالأبواب الموصدة وأضرموا فيها النار. وهب نسيم السحر العليل فأجج اللهب المشتعل، وارتفعت الألسنة الحمر متوهجة. وشاهد طالب العلم الروع على ضوئها تفتح الأبواب الموصدة، وتدفق المناكيد منها، ووقوف الفرس لهم بالمرصاد، وانهيالهم عليهم طعناً وضرباً. وسمع ولولة النساء وهن يجرّرن ممزقات الثياب، مطوقات بالأذرع المفتولة العضلات، وعبثاً كن يحاولن منها الانفكاك. وكثيراً ما لمح الفتى المروع أناساً يجرون صارخين وقد شبت النار فيهم، وزادها جريهم تأججاً.

كان المسكين يحس كأنه يلفظ روحه كلما شاهد روحاً تلفظ ، وكأن جلده يحترق كلما أبصر النار تمسك باطراف محترق . كان يموت ويحيا فى كل طرفة عين ، ويعلم علم اليقين أن مصير هؤلاء ينتظره بين لحظة وأخرى . وكثيراً ما أيقن أن تلك اللحظة الأخيرة حانت فعلا . فقد كان يطرق أذنيه وقع أقدام تصعد فى السلم حتى السطح ، فيغمض عينيه ، ويحبس أنفاسه ويستسلم للموت الموشك على افتراسه . ولكن الأقدام الصاعدة فى السلم كانت تعود أدراجها ، وكان يسمع وقعها أثناء نزولها وهو يتنفس الصعداء .

ولم يطق البقاء على هذه الحال المفزعة . فقد كان على يقين من أن العدو سيصل إلى غرفته لا محالة ، وسيظفر به ويقضى عليه دون أن تتاح له فرصة للهرب. فاذا عوّق العدو فى مجيئه فستلتهمه النار التى كانت تقترب من داره شيئاً فشيئاً . ولم يزل فى هذا الاضطراب والعذاب حتى زاغ بصره ، وخيل إليه أن الغرفة تضيق به ، وأن حوائطها يقترب بعضها من بعض ، فصرخ من هول ما هو فيها ، ووثب صوب السلم ، ونزل درجاته قفزاً ، وخرج من الدار لاهثاً . وما وصل إلى الطريق حتى سرت فى بدنه رعدة جديدة من الخوف . فقد ذكر ما شاهده وهو يطل من نافذته على شوارع المدينة . فتوارى مسرعاً فى الأزقة المظلمة ، مبتعداً على قدر إمكانه من الأحياء التى شبت فيها النار .

وقادته ساقاه المرتجفتان اللتان كانتا تخوران وتلتويان تحته إلى غرب المدينة . ووجد نفسه فجأة إلى جانب سورها الكبير . ورأى وهو يحسب ما يراه وهما ، أشباحاً تنسل من فجوة فى السور أحدثتها أحجار مجانيق الفرس قبيل سقوط المدينة. واستطاع حين ثاب إلى رشده أن يدرك أنه يرى أناساً أسعفهم الحظ مثله ، وقادهم كما قاده إلى طريق النجاة .

ألفت المحنة بين أولئك المهاجرين الذين انضم إليهم الفتى طالب العلم . وعطف بعضهم على بعض ، وساعد قويهم الضعيف وهم يقطعون المفاوز والسهوب متخبطين فى جنح الظلام ، متلهفين على الوصول إلى ساحل بحر الروم . وأشرق الصباح ، ثم توسطت الشمس عرض السماء ، وهؤلاء المنكودون يغدون فى المسير دون توقف . واقتسموا فيما بينهم الزاد الذى استطاع أقوياء الأعصاب منهم أن يفكروا وقت هربهم فى حمله معهم .

واصلوا السير يوماً آخر ، وهانت عليهم مشقة السفر فى وهج الظهيرة كما

هان عليهم سرى الليل ؛ لأنهم كانوا يشعرون بعد كل خطوة يخطونها أنهم صاروا أكثر بعداً من الهول الذى خلفوه وراءهم . وفى صباح اليوم الثالث هبت عليهم نسمات البحر فأنعشت أجسامهم الخائرة القوى . ثم انبسط أمامهم الأزرق الرجراج الممتد إلى غير حد . فهبت عليهم نسائم الحرية والحياة الآمنة الرغدة .

استقلوا سفينة سارت بهم فى طريق الاسكندرية ، وحدثهم الربان وهم فى عرض البحر عن ذلك الثغر التاريخى الذى ثبت لأشد الغزاة خطراً ، وردت أسواره الضخمة أعنف هجماتهم . ورشفت أذن الفتى طالب العلم هذا الحديث العذب وارتوت منه نفسه . وأخذ يحلم بيوم الوصول إلى ذلك الثغر المنيع ، غير عابئ بالبحر الذى زاد اضطرابه حتى أقلق بال جميع الركاب . وألقت السفينة مراسيها بعد أيام على شاطئ السلام والأمان . وتفتح للفتى مجال اغتراف العلم من مناهله الأصيلة ، وبدد بعد الشقة بينه وبين بيت المقدس كل أثر للوهم والجزع اللذين طالما انتاباه . وتوطدت طمأنينته توطد أسوار الثغر الضخمة . ومرت الأيام حتى كاد سرورها ينسى الفتى الأهوال التى وقعت تحت بصره فى البلد المنكود الذى خلفه وراءه .

ولكن سوء الطالع أبى إلا أن يلاحق الفتى حتى بعد اعتصامه بنجعته النائية الحصينة . فوصل إلى علمه فى يوم نحس نبأ تناقلته الألسن عن اقتحام الفرس مدينة بلوز القائمة على حدود مصر الشرقية ، وانحدارهم مع فرع دمياط إلى مدينة منف . ثم توالت الشائعات عن دورانهم حول رأس الدلتا ، وصعودهم مع فرع رشيد إلى الأسكندرية . ولم تفزع هذه الأنباء الفتى فحسب ، بل كذلك ملأت قلبه يأساً ؛ فقد أيقن أن حتفه يلاحقه ، وأن أسوار الأسكندرية لن تحول بينه وبينه ، بل إنه لا بد لاق هذا الحتف على يد الفرس ولو اعتصم بكبد السماء .

وخرج يوماً من داره فرأى الناس صفر الوجوه مرتعدى الفرائص . وسأل عما حدث فعلم أن حراس أسوار المدينة شاهدوا عن بعد طلائع الجيش الفارسى زاحفة صوبهم . وبعد ساعات مليئة بالجزع والخور سمع أهل الاسكندرية همهمة الغزاة متصاعدة من وراء الأسوار ، وشاهدوا جنود الدفاع تعتصم بأماكنها المنيعة فى فجوات الحصون والقلاع .

وأعادت تلك الهمهمة المتصاعدة من وراء الأسوار إلى ذهن الفتى ذكرى

المذبحة الرهيبة التى توشك أن تقع من جديد ، وظهرت له صورها قوية واضحة حتى لكأنها تتكرر أمامه ثانية . فانتفض كما كان ينتفض أمام نافذته فى ذلك اليوم المشئوم . وحمل رأسه بين يديه ، وجرى فى الطرقات كالمخبول ، وصاح فى الناس يحذرهم بطش الفرس ، ويستنزل اللعنة على كل من تحدثه نفسه بخيانة المدينة وخذلان المدافعين عنها . ولولا الكرب الذى ملأ كل قلب لشيع سامعوه فى ذلك اليوم سخرية منه ومقا كهة .

وشغل نفسه بالطواف المستمر بالأحياء المجاورة للأسوار ، يراقب قطانها . ويتجسس أخبارهم خشية أن يكون بعضهم قد بيت النية على فتح أبواب المدينة لمحاصريها كما فعل الخونة فى بيت المقدس . وكان كلما حدث الناس عن وساوسه ، وقص عليهم نكبة بلده القديم أجابوه بأن أهل الأسكندرية يضعون مصلحة ثغرهم فوق كل خلاف خاص بنحلهم ومذاهبهم ، وأن كل واحد منهم أيا كانت عقيدته يؤثر الموت على أن تطأ قدم الغازى أرض وطنه .

ولم يهدأ الفتى ولم يطمئن باله ، ولم يكف عن الطواف طوال النهار بالأحياء التى اشتبه فى أمرها ، وعن التقلقل أثناء الليل فى فراشه ، والتقلب فيه كل هنيهة على جنبيه . وكثيراً ما كانت أعصابه المضطربة تصور له وهو على تلك الحال من التقلقل والتقلب أن الفرس تمكنوا من دخول المدينة ، وأن حملة المشاعل يضرمون النار فى المتاجر والمنازل . فكان يحس ما أحسه فى غرفته القديمة من خوف ويوقن أن بقاءه محصوراً بين الجدران الأربعة سينتهى به إلى الوقوع فى قبضة السفاحين أو فى لهب النيران دون أن تتاح له فرصة للهرب . وكان يقفز من فراشه كلما انتابته هذه الوساوس ، ويدخل ملابسه فى مثل خطف البرق ، ويهفو إلى خارج الدار ليعود إلى طواف المراقبة والتجسس .

وبينما كان يجول ذات ليلة مثل هذه الجولات المسائية على أثر وقوعه فريسة لأوهامه ، قادته قدماه إلى شاطئ البحر ، واستهواه لألاء القمر المائج فوق سطح الماء ، فجلس على الرمال يرقب المنظر الساحر الذى خفف عنه عبء الوهم الجاثم على صدره ، ورأى القمر يغيب فى أحضان اليم ، ولاحظ ا كفهرار الأفق وتجهمه بعد غيابه . ولم يطل أمد ذلك الا كفهرار والتجهم ، ونسيت البسيطة قمرها الراحل ، وأخذ الأفق الشرقى يتورد استعداداً لاستقبال الشمس المؤذنة بالطلوع . ولم يلبث الفتى أن غفل عن نفسه ووساوسها وهو يتأمل الطبيعة التى بدأت

تكشف النقاب عن قسمات حسنها الساحر . ورأى فيما رأى خطاً قاتماً يرين على الأفق البعيد ، حيث يلتقى الماء بحافة السماء ، وحسبه بادئ الأمر سحابة تساقطت على صفحة اليم وتراكمت هناك . ولكنه لاحظ بعد قليل أن ذلك الخط يقترب من الشاطئ ، وسرعان ما ازداد ضوء الفجر سطوعاً ، وصرخ الفتى صرخة مدوية إذ تبين حقيقة ما رأى . وحاول الهرب من الشاطئ فخانته قدماه ، وسقط على الرمال فاقد الوعى . وفتح عينيه بعد قليل فوجد نفسه محاطاً بأناس أقبلوا على صراخه . وظن فى أذنه لغطهم وتساؤلهم عما به . ودارت عيناه إلى البحر . وأيقن فى هذه المرة أن ما رآه لم يكن وهماً . فالبحر ملئ بالاف المراكب القادمة إلى الشاطئ ، وسرت فى جسمه رعدة اصطكت لها أسنانه . وخرج من حلقه المرتعد صوت أشبه بصوت وحش مذعور ، وأشار بيده إلى ناحية البحر ، واستطاع الملتفون حوله أن يميزوا من قوله كلمة « الفرس . . . الفرس » . وقهقه بعضهم ضاحكين لدى سماع هذه الكلمة ، وأقبل بعضهم الآخر عليه مشفقاً . وقال له رجل منهم وخط الشيب لحيته : « ليس هؤلاء القادمون إلى الشاطئ فرساً . ولكنهم صادة الأسماك ، يقضون ليلهم فى رمى الشباك . ويعودون بصيدهم عند طلوع الفجر . »

ولم يهدأ روعه إلا عندما نزل الصيادون المصريون الشاطىء واستوثق بسمعه وأذنيه من حقيقة أمرهم . وسار إلى داره مضعضع الحواس . ودخل غرفته وارتمى على فراشه منهوك القوى . وظل باله مشغولا بذلك الخط الذى اكتمل به الأفق فى الصباح . وإذا به يستوى جالساً على حين فجأة فى فراشه ، وإذا وجهه يمتقع ، وأطرافه تبرد وترتعد ؛ فقد خطر له خاطر رج كيانه رجا : خطر له أن الفرس قد يلجأون إلى الحيلة ، فيرتدى بعض جنودهم ملابس صادة الأسماك . وينزلون الشاطىء دون أن يستلفتوا الأنظار ، ويقصدون إلى الأبواب فيقتلون حراسها ويفتحونها على مصاريعها ، ويتدفق جيشهم منها إلى المدينة ، وتتكرر مأساة بيت المقدس .

ظل ينتفض فى فراشه ، وجحظت عيناه من شدة الرعب . ولكن خاطراً جديداً خطر له كالتماع البرق ، فهدأ فجأة ، وانبسطت أساريره ، وقرت عيناه . وشعر بعد الاضطراب المضنى بهدوء عجيب . خطر له أن ينسل تحت جنح الظلام إلى معسكر العدو ، ويقابل كسرى فيبسط له تلك الحيلة التى

تيسر له مهمته ، وتمكنه من فتح المدينة التى استعصت على جبابرة الفاتحين .

وبعد يومين نزل الفرس شاطىء الأسكندرية فجراً فى ثياب الصيادين المصريين وفتحوا أبواب الأسوار . وأخذ الجيش المصرى على غرة ، فانهزم أمام الخدعة غير المتوقعة ، بعد أن عزت على أعدائه هزيمته عنوة .

وظل الفتى فى معسكر العدو خارج المدينة لا يجرؤ على دخولها . ولم يذق طعم الهدوء والاطمئنان كما توقع ؛ لأنه شعر بأنه يشارك كسرى هذه المرة فى تحمل وزر المذبحة التى أقامها الفرس هذه المرة على شاطىء عروس بحر الروم .

وصل جيش الشام فى مده إلى آخر المطاف . ولو تبصر كسرى وفطن إلى أن صرح المجد الذى يبنى على العدوان لا يلبث أن ينهار ، لاستطاع أن يرى ما يخبئه الغيب ، وأن يعلم أن أوان الجزر قد آن ، وأن جيشه سيجلو عن الأصقاع التى احتلها ، وينهزم أمام الأمم التى هزمها ، وسيتقلص سلطانه ، وسينكمش حتى يقبع فى دياره من جديد .

محمد مفيد الشوباشى